قلب محـــروم . . !

للأستاذ غائب طعمة فرمان

[إلى صاحب القلب الكبير الذي كتب « من وراء الأبد » ... إلى صديق الأستاذ أنور المعداوي أهدي هذه القصة]

عزيزي ...

حين تصلك رسالتي أكون قد غادرت أرض الكنانة ميمماً شطر وطني — وبين جوانحي قلب مضطرب ، ونفس منعمة بشتى الأحاسيس — قلب جريح تجرع كؤوس الأسى مترعة ، ونفس عصفت بها رياح صارمة فخلفت أرض مصر زهوراً ذابلة هي ذكريات ليال وأيام؛ ستظل رؤى مرة في فكري لا يطردها النور ، وجذوة مستمرة في قلبي لا يخمدها تقاوم العهد ، وتطاول الأيام .

كنت تسألني كثيراً والابتسامة على شفتيك عن سبب سكناي في مصر الجديدة ، والشقة بعيدة بينها وبين جامعتي ، فأقابل ابتسامتك بابتسامة ، ويظل سؤالك من غير جواب .

وأراني الآن مدفوعاً بقوة صارمة صادرة من أعماق إلى أن أقص عليك طرفاً من تاريخ قلبي ، علك تشاركني آلامه ، وأشجان دنياي .

لست أدري السر في أن الإنسان يستطيع أن يكتم كل شيء إلا الحب والبغض ، حتى أصبح هذان الأمران محورين أساسيين الانسانية : الحب يبني ، والبغض يهدم .

فلا جناح عليّ — إذن — في أن أقول لك : إني أحببت ... نعم أحببت حباً امتزج بدمي ، وطوق روحي ، وشغلني عن كل

إلى معالي وزير المعارف:

مرحى يا معالي وزير المعارف والعلم والأخلاق ! مرحى أيها الرجل النبيل !

لقد أصبت إذ قررت أن ترتدي الطالبات والمدرسات ملابس طويلة تغطي معظم الجسد عملاً بالدين واحتراماً لمحاريب العلم والأخلاق . إنني إحدى المؤيدات من الطالبات آلمني الضجيج الذي علا أخيراً في الصحف بين « المتمدنين » أنصار الإباحية وعجبت لمعارضاتهم التي لا تستند إلى حجة اللهم إلا « التقدم والرجعية » الكلمتين اللتين بليتا من كثرة الاستعمال بالحق والباطل .

يامعالي الوزير : ناشدتك الله ألا تلتفت إلى هذر أدعياء المدنية فالعلم بدون أخلاق مدرجة للشر وسبيل للفساد .

الطالبة

(ف . أ . ع)

رد قصر الخورنق :

في عدد سالف من الرسالة . نشر الأستاذ كاظم المظفر . . بحث عن « الخورنق » القصر المشهور بالحيرة . . وكانت طريقته في تأليف تلك السطور طريفة . . غاية بالطرافة . . إذ درس بها أقوالاً حول آثار العراق التاريخية . . كانت قد نشرت بنصها في مجلة الاعتدال النجفية . . كما أشار هو إليها ، وأقوالاً مثلها حول قصر الخورنق نشرت هي أيضاً في كتاب الحيرة للباحث القدير يوسف غنيمة — ولكنه لم يشر إلى هذا الكتاب إلا قليلاً — حيث شغله عنه ذكر بعض المصادر القديمة التي اعتمد عليها يوسف غنيمة من قبيل « السلسلة الإسلامية » و « الألفاظ الفارسية المعربة » و « حمزة الأصفهاني » و « البرهان القاطع » ...

والطريف هنا أن يوسف غنيمة كان يصوغ النصوص القديمة بتعبيره الحديث ويشير إلى أصولها في كتب القدماء — فجاء كاظم فنسب هذه النصوص بألفاظها الحديثة إلى القدماء ليوهم أنه اطلع عليها رأساً . ولم يأخذها من كتاب الحيرة المطبوع . وإنا لو أردنا أن نبرز السطور التي أخذها من مصادرها ومن يوسف غنيمة خاصة لما ظل لكاظم المظفر من هذا المقال الطويل شيئاً — إذ هو جميعه مأخوذ من هنا ومن هنا . . وإن حاول أن يخفي ذلك بذكره لكثير من المراجع التي لم ير أغلبها .

(بصره — عشار — عراق) قارئ

شيء ، فظلت أهيم فى زورق ، والأمل سد أقطار الحقيقة عنى ، ومنافذ النور عن بصيرتى ، ورحت أدنو إلى الشاطىء الثانى ، والضباب قائم من حولى ، وفى أعوادى الظلمة واليأس المرير .

إننى لأذكر أول لقاء لى بها فى أحد تلك المقاهى المخضلة الأضواء وقد عرفنى بها ضابط مصرى عشت معه فى دار واحدة زمناً طويلاً — وقد كانت شعلة من إغراء ، وقد بدت لى صغيرة — صغيرة جداً حتى عبق فى وجهى عطر الطفولة الآسر — وكانت الابتسامة بين شفتيها كأنها تشجع القلب المحروم على أن يحب —

— فتاة فى العشرين من عمرها أجمل ما فيها عيناها السودوان المتألقتان كنجمتين فى سماء غسلتها دموع الملائكة .

وقد تحدثنا كثيراً ، وكان حديثها عذباً ، حلو النبرات ، وشعرت بأن عينيها تحدثانى فأنصت إلى الإيقاع الروحى الصادر من الأعماق — وبان لى أنها متذمرة كأنها تعيش فى سجن ، خائفة كأنها تتوقع شيئاً مؤلماً ، وكانت ثقافتها الفرنسية ذات أثر عظيم على نفسها ، بذرت فيها بذور الانطلاق ، ونسجت حول خيالها العوالم التى تخلقها قصص الحب — والعاطفة الملتهبة .

ولما رجعت إلى بيتى لم أكن وحيداً — فقد كان خيالها لا يبرح خيالى ، وما زلت أشم عطرها الآسر ، وألمح إبتسامتها الجميلة — وكانت معى أحلامى المجنحة — يا عجباً أيهذه النزعة نبتت — فأشعر بظلالها تسمر فكرى ؟

ورحت أنتظر صديقى واللوم هو أجفانى ، والرؤى ملأت عالمى — ولما سمعت وقع أقدامه قفزت من فراشى ، وشغلت أتطلع إلى شفتيه المنفرجتين من إبتسامة ماكرة .

قال :

— أتعرف ماذا تقول عنك — إنك فى نظرها طفل غرير .

بالمكر المرأة يا صديقى — هل أحست بنظراتى تضرعاً ، وباختلاج شفتى ظمأ لرحمة ؟!

ثم قال : ولكنها تريد مقابلتك مرة ثانية .

فقفزت فرحاً كأنى أبرهن على صحة نظرها — وقلت :

رحماك يا صاح حدثنى عنها — أقصص على أخبارها — أى نوع من النساء هى ؟ فصاح صاحبى .

— بالك من طفل — أتعلقت بها من أول لقاء ؟

لا — لا — لم أتعلق بها — ولكنى أحس بظمأ يحرق روحى إلى أن التقى بها وأنظر إليها . وأتحدث معها — وأتملى سحر وجهها — وأتحدث إلى عينيها الساحرتين ... وأغمر قلبى فى وجهها الناظر ..!!

* * *

وفى اليوم الثانى ذهبت إليها .

وجلسنا فى أحد مقاهى مصر الجديدة ، والأنوار فى ألوانها المختلفة تخلق لنا فى آفاق مخيلتنا عوالم غريبة — والجو الساجى يرهف أعصابنا ، والنسيم المنبعث من وراء الأشجار الخضر ندىٌ كأنه يداعب أحلامنا ، ويشرق فى عالمنا بأطياف جميلة ... ومن خلف عالمنا السحرى تتألق النجوم من بعيد كأنها أشباح لدنيا مسحورة مختفية فى ضمير الأبد .

جلست إليها وهى أمامى ساحرة مشرقة القسمات ، وجلناها مسبلان بدلال على عينيها السوداوين ، وأنا أرتشف من كوؤس نشوتى ... ولاحت لى الأيام الماضية طلولا ينمق فيها غراب الوحدة ، وتصرخ فى جنباتها ريح اليأس المرير ... وحرقت ذكرياتى كلها فى نار وجدى ، وهمت فى الأجواء البعيدة التى تخلقها حواء .. أنا المحروم من ... العاشق فى ضباب ، المسحور بتهاويل الأحلام .

وطال صمتنا ونطقت حواء أخيراً :

— ما بالك يا صاحبى ساهماً كأنك تفكر فى المستحيل ؟

ولمست عيناها ، ووقفت أمام سؤالها حائراً . . وأردت أن أصرخ فى وجهها :

— أقسم لك إنها هذا حق ... فأنا فى رحاب المستحيل .

ولكننى آثرت الصمت ، وانطلقت من شفتى ابتسامة هاربة كأنها جواب مبهم .

قالت : — إن الشباب دائماً يفكر فى المستحيل .. أتخالنى بعيدة عن عالمك الغامض ؟

— ولكن أية قوة قادتك إلى تلك الأبراج الشاهقة ؟!

— القوة التى تدفع الشباب إلى المستحيل ... ولكن لست أدرى لم يهيم الشباب بالمستحيل ؟

— لأنه كثير الآمال ... وكل أمل يخيب يزيد حياته ظلمة ، وينقلب في سفر أيامه إلى ذكرى إخفاق ... مؤلم .

الآن بدأت أعرف لم يلف عمري سحاب من الأحزان — إن أشياء كثيرة تحزنني هي جراح أحلامي — إن عمري يذبل من غير غاية — فأنا الآن في العشرين من عمري ولم يتحقق حلم الجميل .

وأشفقت على حلمها الجميل الذي لم يتحقق وشعرت بيد من حديد تعصر قلبي وأردت أن أقول لها .

أيتها الهائمة في الصحراء تفتشين عن حلمك الجميل — أيتها الفراشة التي أسلمها نار الحرمان ، قلبي المرهون بإشارتك — أتسمعين نداءه ؟.. إنه يدعوك إلى أن تفكي عن الماضي ومآسيه ، وتدخلي في الجنة التي خلقتها عيناك له — جنة أحلامه وأمانيه .

• • •

وافترقنا على ميعاد — وظللنا نذلف إلى عرائس أحلامنا مدة طويلة .

وجئت إليها مرة وفي قلبي هم — قلت

— اسمحي يا « نادية » في ضميري سر يعذبني قد تكون اختلاجاتي تمت عليه — إنني أحبك !.. من أعماق نفسي ، وإنك قد دخلت دائرة حياتي ، ولا يمكنني أن أخرجك منها . ولا يمكنني أن أنساك ... إن آلامك آلامي ، وآمالك آمالي ، وقلبي يدعوك إلى أن نسير جنباً إلى جنب في طريق الحياة .

نضنضت يدي وابتسمت عيناها — ثم شفتاها — وقالت :

كأنك تقرأ أفكاري — فأنا أخاف من طريق حياتي هذا القفر .

— وعندما رجعت إلى بيتي كنت إنساناً جديداً

أقسم لك يا عزيزي لقد تغيرت نظرتي إلى الحياة ... فقد تخيلتها إلى جنبي ملكاً حلالاً لي ... أنا وحدي ... أنا الذي قطعت حياتي في صحراء الوحدة ... أنا الذي أذبل قلبي الحرمان والظمأ القاتل إلى الحنان — إلى الصدر العامر بحبي والإخلاص لي . إلى القلب الذي يضمد جراحي ... إلى الروح التي تنشلني من الأوحال ... دنيای المظلمة القاتمة المضطربة التي لا تستقر على قرار .

وبنيت في خيالي بيتي المنتظر ... بيتاً بسيطاً لاثنين . .

وتخيلتها إلى جنبي زهرة تحدق بالسطر ، وتملأ حياتي حبوراً ، وروحي قوة وحيوية ، وترد لي سعادتي الضائعة مع الأوهام .

كانت الدنيا في عيني جميلة بهيجة ، حتى لقد أسفت على عمر قضيت شطراً منه في عمى وجداني من غير شعور بهجة الدنيا وجمالها ... وشعرت بأن الناس يشاركونني أفراحي فقد رنت في أذني ضحكاتهم ، وابتساماتهم الحلوة ، وانطلاق أساريرهم ، وولائل السعادة في محياهم ... ووددت أن تكون معي لتشاركني بما أشعر به من سعادة .

... ووصلت إلى البيت فرأيت بطاقة من صديق الضابط يقول : إنه سافر إلى الأسكندرية لعمل هام يتطلب منه أن يغيب عشرة أيام ... أو أكثر .

... ولم أعر الخبر شيئاً من اهتمام لعلمي بما تقتضيه الحياة العسكرية من تنقل فجائي ... وفي أصيل اليوم ذاته سمعت أن « نادية » سافرت إلى « رأس البر » لقضاء أسبوع مع أقاربها . وقد تركت لي رسالة تخبرني بذلك .

وظللت حائراً أمام هذه المصادفة العجيبة ... ورأيتني لجاجة وحيداً إلا من وساوسي وخيالاتي ، وأشواق المضطرمة .

أنت تعرف — يا عزيزي — أن الوحدة لدى الإنسان العادي جحيم لا يطاق .. فكيف بوحدة الإنسان المتلهف بالظنون ، الهائم في الأجواء ، تتلاقفه الأهواء ، وتستبد به الخيالات ، ويحس بشوق إلى اكتناه حجب المستقبل .

لقد تعذبت كثيراً وتحطمت أعصابي تحت أعباء الظنون القاسية ، وهزت نفسي هزات من القنوط ، وصرت صريع دياجير من أفكاري وتصوراتي .

وأخيراً رجع صاحبي ... ومعه زوجته

لست أعرف السر في إخفاء خبر زواجه عني أنا الصديق القريب له .

وبعد يومين رجعت نادية ... وفي مساء اليوم ذاته التقيت بها ... وكانت معي « دلية » تختفي في حياء إحدى زوايا جيبي .

ولكن رأيتها صورة ثانية ... كأنني لم أرها قبل عشر سنوات

ولمحت على وجهها اكتئاباً عميقاً ، وفي عينيها شروداً وغموضاً ، وفي اختلاج صوتها رنة من العبرات المحبوسة .

تكلمت في مواضيع مختلفة ، ولكنها لم تتطرق إلى موضوع

زواجنا ... أنسيته أم تناسته ، أم ندمت على ما قلته ؟ .. لست أدري فقد بلغ الغيظ مني مبلغاً عظيماً وأحسست بأن الأرض من تحتي تتحول إلى رمال هشة ، وتحاول أن تبلعني .

قلت لها :

— أنسيت ما عاهدتني عليه ؟

أي عهد ؟

— أي عهد ؟! أنسيت أحلامنا وأمانينا ؟

سكتت وشردت بصرها أثر النجوم التي تطل على عالمنا ساخرة كأنها تضحك من مآسينا ... ورأيتها تمسك يدي وتقول :

فلان ... أنت عزيز علي ... إنني أشفق على حياتك أن تتحطم ، وعلى روحك أن يعصف بها إعصار ... لهذا فأنا لا أوافق على الخطبة !!

... عزيزي الأستاذ لقد حدثتك عن الأحلام التي كانت تعمر فكري — وعجبت من سرعة إزدهارها . لقد ذبلت اليوم بسرعة أيضاً — وها أنا أحس بقسوتها وضراوتها في فكري قالت :

— أنت الآن في نظري صديق عزيز أثق بقلبه ، وأطمئن إلى إنسانيته — لهذا سأقص عليك سراً كتمته عن جميع أصدقائي وأوثق الناس بي صلة — المأساة أمامك فتاة تجرعت صاب الخديعة ، ولقيت جزاء سنماجتها وبراءتها ، وطيبة قلبها ... لقد كنت أتصور الدنيا خالية إلا من الحب والطيبة فأوغلت في دروبها منقادة بانطلاق حتى تعرفت على رجل ! صورته لياني سهادي ملاكاً يمثل القدسية على وجه الأرض ، وانجرفت مع تيار تصوراتي إلى شاطئه ، فأحببته من صميم قلبي ، حباً جارفاً مجنوناً عاصفاً حتى رحت أهرع إلى صدره حين يستبد بي الضجر ، وتزرع الدنيا بذور الأحزان في قلبي . . لقد كنت أقرأ كثيراً مما يكتبه الفرنسيون المعاصرون بهستريا الحب ، فأنصاع إلى آرائهم وأدخل في جنائن تخيلاتهم ، وأهيم في الأودية التي تخلقها أفكارهم .. وأمتص رحيق الحب المحرق من شفتي محبوبي !!

كان صاحبي يتدفق بالزواج ، ويحتبي بالأماني العذاب ، ويطفو ظمئي بالسلاف ... ولكني والحمد لله ما زلت محتفظة بجوهرتي الغالية على رغم إغرائه وتوسلاته ، وخوري أمام قوته الجارفة !!

ولكن الأيام والليالي تمر بسرعة غير متوانية ... وصاحبي صامت إلا من إحراق أزهار أحلامي ، حتى رأيت حبه لي يتحول إلى فتور ، وشوقه ينقلب إلى نفور ، وأراني وحيدة إلا من حب يائس لم تصبه الأيام الماضية بوهن ... تلك الأيام التي قضيتها في ظلال هجرانه لي ، وتنكبه عني ، ونفوره مني .

وذات يوم سمعت أنه سافر إلى الأسكندرية للزواج من فتاة من أسرة محترمة ... وتوهج الحب في قلبي ، وانقلب إلى شواظ من نار ... وقام في نفسي ميل شديد إلى الانتقام ممن سلبني قلبي ، وربطني معه ، ثم ولى هارباً إلى الوجهة التي ليست وجهتي .

فسافرت إلى الأسكندرية ، وعرفت البيت الذي سيظلل حبيبي ، فذهبت إليه ، ورأيت صاحبي مع عروسه يتألق وجهه سعادة ، وتشرق الابتسامة في فمه في الجهة الثيرة من الحياة كأنه نسي أن هناك قلباً يلوح بحبه ، ويتعذب نيشق في هوة سحيقة في الجهة المظلمة البائسة من الحياة ... وأحسست بالمرارة تخنقني ، وبكياني ينهار كأنه جدار خار ، وعدت أدراجي من البيت الذي سرق مصباح حياتي وتركني أهيم في الدجى وحدي ... إنه نكث عهده ، ولكني ما زلت أحبه حباً عميقاً وأنا عارفة أنه سبب شقائي ، ولكني لن أتنكب عنه ... أما أنت فلا أريدك تتعذب بسببي ، ولا تتجرع كأس الأسى معي ... وسأظل مخلصة لحبي اليائس حتى يمنح الله حداً لحياتي التعسة .

وطفقت تبكي بدموع لم أتبين حقيقتها ... ثم قالت : — أعرفته ؟.. فأجبت : — لست غريباً إلى هذه الدرجة ... وامتلأ صدري بالحقد على تلك العلائق التي تربط الإنسانية .

قلت : أتذكرين عندما التقينا ثاني مرة في هذا المقهى ، وقلت : مالك ساهماً كأنك تفكر في المستحيل ؟.. لقد أردت أن أصرخ في وجهك : هذا حق ... فأنا الآن في رحاب المستحيل . ذلك لأنني سمعت هاجساً يهجس في أن حبك لي مستحيل ... لأن القوة التي صاغت حياتي كانت قاسية كتبت عليّ أن أسير وحيداً في طريق غاص بالأشواك .

ومددت يدي في جيبي وأمسكت بالدبلة وحطمتها بين أصابعي بقوة ... ثم رميت حطامها بعيداً ... ومعها أحلام قلب مجروح .

غائب طعمة فرمان